محمد بن عبد الملك الزيات

للأستاذ عبد اللطيف ثابت

جلس عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة إلى ولده محمد يحدثه عن تجارة الزيت، ويروي له من تجاربه، ويصف له مشاهده المتعة في رحلاته التي كانت تنتهي بذكائه وصبره وجرأته إلى التوفيق، إذ كان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد، فيثري من وراء ذلك ثراء عظيما، وبعد لما جمعه من المال في تجارة الزيت من مياسير الكرخ، وينصحه في لهجة العاطف الحاني أن يحذو حذوه، ويسلك مسلكه، فيتعلق بالتجارة ويتشاغل بها؛ ولكن الفتى وقد سمت به همته، وطمح إلى ما لا يطمح إليه السوق الذي تشغله التجارة وملازمتها عن قصد المعالي — يأبى أن يصغى إلى حديث أبيه إلا بمقدار أن يسمعه، فيجيب عنه بإباء يؤكد أنه لا يشتغل إلا بالأدب وإلا بما هو من وسائل الأدب، لأنه يحس من نفسه بدوافع تدفعه إلى ما لا يرمقه إلا كل ذي همة وثابة، ونفس تطمح إلى العلا.

وها هم أولاء لداته يشهدون له بكفايته في العلم والأدب، ويثنون على ذكائه وقوة إدراكه وسرعة بديهته، ومقدرته على حل ما يشكل عليهم من مسائل العلوم لا في النحو واللغة فحسب، بل فيهما وفي غيرهما من سائر العلوم. وهذا أبو عثمان المازني وقد عرفه لما قدم بغداد في أيام المعتصم يقول لأصحابه وجلسائه، إذا خاضوا بين يديه في علم النحو فاختلفوا فيما يقع فيه الشك — ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب، يعني محمد بن عبد الملك الزيات، فاسألوه واعرفوا جوابه فيفعلون، ويصدر جوابه بالذي يرتضيه أبو عثمان ويوقفهم عليه. فهذه الثقة من أترابه وغيرهم من أبناء عصره، تدفعه في قوة أن يخالف أباه عبد الملك ويراغمه، فيلزم الأدب ويطلبه ويخاطب الكتاب، ويلازم الدواوين، ويجيب أباه في قوة الواثق المطمئن — وقد قال له ذات يوم: والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك، وليضرنك، لأنك تدع عاجل المنفعة، وما أنت فيه مكفي، ولك ولأبيك فيه مال وجاه، وتطلب الآجل الذي لا تدري كيف تكون فيه. فيجيبه: والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه أأنا أم أنت؟ ثم يشخص بعد قليل إلى الحسن بن سهل وزير المأمون، فيمدحه بقصيدة أولها:

كأنها تثني خطوها أخنس موشي الشوى يرعى الثلل

فيعطيه الحسن عشرة آلاف درهم، فيعود إلى أبيه قارئاً منتصراً، فيبتسم أبوه في رضا، لأنه تاجر يسره أن يرى الدراهم والدنانير، ثم يقول له لا ألومك على ما أنت فيه. ولكن محمد بن عبد الملك لا يقنعه أن يصله الحسن بعشرة آلاف درهم، إذ ليس ذلك قصارى غايته مما تطمح إليه نفسه، بل يطلب أن يمثل بين يدي الوزير فيؤذن له، فينشده:

لم أمتدحك رجاء المال أطلبه ... لكن لتلبسني التحجيل والغررا

وليس ذلك إلا أنني رجل ... لا أطلب الورد حتى أعرف الصدرا

فيقدره الحسن قدره، ويعترف له لأنه شاعر مجيد لا يقاس به أحد من الكتاب إلا ابراهيم بن العباس الصولي. على أن الصولي مقل وصاحب قصار ومقطعات، ومحمد بن عبد الملك شاعر يطيل فيجيد ويأتي بالقصار فيجيد.

ويأبى إلا أن يصل إلى الغاية في أن يأخذ الحجة على أبيه بصدق نظره وصحة رأيه فيما هو يرى إليه من الاشتغال بالأدب، فينتهز فرصة واتته بادر إلى اقتراصها، فرد بها حقاً لأبيه كاد يضيع: ذلك أن ابراهيم بن المهدي وثب على الخليفة المأمون، ولما لم يكن لديه من المال ما يعينه على أمره، اقترض من مياسير التجار ما هو في حاجة إليه من المال، وأخذ من عبد الملك بن أبان فيمن أخذ عشرة آلاف درهم، وقال له: أنا أردها إذا جاءني مال، ولم يتم أمر ابراهيم، فاستخفى حيناً ثم ظهر، ورضي عنه المأمون، فطالبه الناس بأموالهم فقال: إنما أخذتها للمسلمين وأردت قضاءها من الفيء لو تم لي الأمر، والأمر الآن إلى غيري.

وعلم محمد بن عبد الملك بقصة القرض ، فعمل قصيدة يخاطب فيها المأمون بما يوقظ موجدته على ابراهيم بن المهدى ، واطلع ابن المهدى عليها ، وقال له : لئن لم تعطنى المال الذى اقترضته من أبى لأبعثن بهذه القصيدة إلى المأمون ، فخاف ابن المهدى أن يقرأها المأمون فيتدبر ما قاله فيوقع به ، فقال له : خذ منى بعض المال ونجم على بعضه ، ففعل بعد أن حلفه ابراهيم بأوكد الأيمان ألا يظهر القصيدة فى حياة المأمون ؛ ففى له بذلك ، ووفى ابراهيم برد المال كله . ويسر أبوه بهذا كله ويعجب ، ومن هذه القصيدة ما يأتى :

فو الله ما من توبة نزعت به ... إليك ولا ميل إليك ولا ود
ولكن إخلاص الضمير مقرب ... إلى الله زلفى لا تخيب ولا تكدى
أتاك بها طوعاً إليك بأنفه ... على رغمه واستأثر الله بالحمد
فلا تتركن للناس موضع شبهة ... فإنك مجزى بحسب الذى تسدى
فقد غلطوا للناس فى نصب مثله ... ومن ليس للمنصور بابن ولا المهدى
فكيف بمن قد بايع الناس والتقت ... ببيعته الركبان غوراً إلى نجد
ومن سك تسليم الخلافة سمعه ... ينادى به بين السماطين من بعد
وأى امرئ سمى بها قط نفسه ... ففارقها حتى يغيب فى اللحد

ومنها :

فان قلت قد رام الخلافة غيره ... فلم يؤت فيها كان حاول من جد
فلم أجزه إذ خيب الله سعيه ... على خطأ إذ كان منه على عمد
ولم أرض بعد العفو حتى رفعته ... وللعم أولى بالتعمد والرفد
فليس سواء خارجى رمى به ... إليك سفاه الرأى والرأى قد يردى
ومن هو فى بيت الخلافة تلتقى ... به وبك الآباء فى ذروة المجد
فولاك مولاه وجندك جنده ... وهل يجمع القينان الحامين فى غمد

ويظهر لما اشتهر به من العلم والفضل والبراعة فى الأدب أثره ، فينتظم فى سلك الكتاب بديوان الوزارة ، ويظل يعمل لا يزيد على غيره من الكتاب شيئاً ، ولا يمتاز عنهم بشىء إلا بما وهبه الله من علم وأدب .

ويتولى الوزارة للمعتصم أحمد بن عمار بن شاذى البصرى ، ويرد على الخليفة من بعض عماله كتاب يقرؤه الوزير عليه ، وكان فى الكتاب ذكر الكلأ ، فيسأله المعتصم : ما الكلأ ؟ فيقول : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب ، فيقول له المعتصم : خليفة أمى ، ووزير عامى ! وكان المعتصم ضعيف الكتابة ، ثم يأمر أن يبصروا من بالباب من الكتاب ، وتشاء الأقدار التى تيسر كل إنسان لما خلق له ، أن يكون بالباب محمد بن عبد الملك الزيات ، ويدخلونه إلى الخليفة فيسأله : ما الكلأ ؟ فيجيب : الكلأ العشب على الإطلاق ، فان كان رطباً فهو الحلا ، فاذا يبس فهو الحشيش ، ثم يشرع فى تقسيم أنواع النبات فيعلم المعتصم فضله فيستوزره ويحكمه ويبسط يده .

ويبلغ الفتى بالوزارة الذروة مما كان يطمح إليه ، فيعلو شأنه وتنفذ كلمته ، ويدل بما عرف عنه من العلم والفضل فيشترط إذ يتولى الوزارة ألا يلبس القباء وأن يلبس الدراعة ويتقلد عليها السيف بحمائل فيجاب إلى ذلك فيمتاز بهذا أيضاً عما سبقه من الوزراء .

ويبدو فى وزارته شديد البأس ، عظيم المنة ، قوى الإرادة قاسى القلب ، لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا بل هو يرى الرحمة خوراً فى الطبيعة وضعفا فى المنة ويقول عن نفسه مارحمت شيئا قط . ولا يقف فى حقده دون نكبة من يحقد عليه ، غير مبال بصروف الزمان وتقلب الدهر . اتخذ فى أيام وزارته تنورا من حديد فى داخله مسامير محدودة قاعة كرؤوس المسال يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال فكيف انقلب أحدهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير فى جسمه فيجد لذلك أشد الألم ، حتى إذا جأر إليه المعاقب يطلب الرحمة أجابه بكلمته السابقة إن الرحمة خور فى الطبيعة :

ومن يتصف بمثل صفاته هذه ويكون فى مثل شأنه هذا يكثر حساده ويشتد عليه أعداؤه .

ومن هم حساده وأعداؤه ؟ إنهم عظماء الرجال فى عهده : كالقاضى أحمد بن أبى دؤاد ، ويحيى بن خاقان ، وإبرهيم

ابن العباس بن محمد بن صول ، وعلى بن جبلة ، وأبي دلف القاسم ابن عيسى :

كتب إليه على بن جبلة يقول ، وكان قد قصد أبا دلف فى بعض أمره :

يابائع الزيت عرج غير مرموق ... لتشغلن عن الأرطال والسوق
من رام شتمك لم ينزع إلى كذب ... فى منتماك وأبداه بتحقيـــق
إن أنت عددت أصلا لاتسب به ... يوما فأمك متى ذات تطليق
ولن تطيق بحول أن تزيل شجا ... أثبته منك فى مستنزل الريق
الله أنشاك من نوك ومن كذب ... لاتعطفن إلى لؤم لمخلوق
ما ذا يقول امرؤ غناك مدحته ... إلا ابن زانية أو فرخ زنديق

فاجابه محمد بن عبد الملك

اتمـــخ بأنفك ياذا السيء الأدب ... ماشئت واضرب حذاك الأرض بالذنب
ما أنت إلا امرؤ أعطى بلاغته ... فضل العذار ولم يربع على أدب
فاجمح لعلك يوما أن تعض على ... لجم دلاصية تثنيك عن كثب
إنى اعتـذرت فما أحسنت تسمع من ... عذرى ومن قبل ما أحسنت فى الطلب
صبراً أبا دلف فى كل قافية ... كالقدر وقفا على الجارات بالعقب
يارب إن كان ما أنشأت من عرب ... شروى أبى دلف فاسخط على العرب
إن التعصب أبدى منك داهية ... كانت تحجب دون الوهم بالحجب

ثم اتصلت المهاجاة بينهما زمنا بسبب تعصب على بن جبلة لأبى دلف وليس غريبا ولا فضولا أن يتعرض على بن جبلة لهجو محمد بن عبد الملك لايحمله على ذلك إلا انتصاره لأبى دلف وإخلاصه له وتفانيه فى حبه ، فقد تعرض ابن أبى جبلة لغضب المأمون وناله مانال منه بسبب أبى دلف إذ قال فيه :

إنما الدنيـــا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره
وإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

وقال :

أنت الذى تنزل الأيام منزلها ... وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد ... إلا قضيت بأرزاق وآجال

فأحفظه عليه ، فليس يعقل أن يخشى سلطان محمد بن عبد الملك وهو لم يخش سلطان الخليفة وإن كان محمد بن عبد الملك قد بلغ من السلطان مبلغا جعل الناس يتملقونه ، فيرضون عمن يرضى ويغضبون على من يغضب .

وهذا ابرهيم بن العباس الشاعر تنقلب صداقته لمحمد بن عبد الملك عداوة شديدة ، وشحناء عظيمة ولا سبب لذلك فيما يغلب على الظن إلا أن ابن عبد الملك حسد ابرهيم حظه من الوجهة الأدبية فهو كاتب حاذق بليغ ، فصيح منشىء ، وهو إلى هذا شاعر مجيد يقول عنه أحد شعراء عصره لو تكسب ابرهيم بالشعر لتركنا فى غير شيء . وحسده كذلك نباهة شأنه ، وعلو قدره ، حتى لقد تنقل فى الأعمال الجليلة والدواوين إلى أن تولى ديوان الضياع والنفقات بسر من رأى — وكأنما كان يخشى منه ابن الزيات على نباهته أن يحملها ، وسلطانه أن يذهب به ، فهو يحمل عليه وينال من دينه وشرفه ، ويرسل إليه أبا الجهم أحمد بن سيف ويكلفه أن يبحث بدقة فى شئونه عسى أن يكشف عن أخطائه ويظهر من أغلاطه ما يأخذه به فى غير حذر من لوم ، فيكتب إليه ابراهيم .

وإنى لأرجو بعد هذا محمداً ... لأفضل ما يرجى أخ ووزير
ولكن محمداً يقيم على أمره وأبا الجهم يلج فى تحامله . فيكتب إبراهيم أيضاً إلى ابن الزيات شاكيا أبا الجهم ناثلا منه ، واصفاً إياه بالكفر ، إذ هو القائل لما مات غلامه يخاطب ملك الموت :

تركت عبيد بنى طاهر ... وقد ملأوا الأرض عرضا وطولا
وأقبلت تسعى إلى واحدى ... ضرارا كأن قد قتلت الرسولا
فسوف أدين بترك الصلاة ... وأصطبح الخمر صرفا شمولا

فيغضب محمد لشدة عصبيته على ابراهيم هذا الشعر له ويرميه بالكفر دون أبى الجهم ، ويأبى أن يعنى لتوسلاته اليه بشعراً أو

نثراً ولا ينقذه منه إلا الخليفة الواثق فهو الذى يرفع عنه ، ويأمره أن يقبل منه ما رفعه من المال برغم ما ثبت عليه من عجز فى إدارته فى ديوان الضياع بما كشفه أحمد بن المدبر ، حين جمع المتوكل بينه وبين ابراهيم فأخذ يروى من عجزه أمثلة لا تفتقر — وقد اعترف ابراهيم نفسه بعجزه وقال : إنى لم أدفع أحمد بحجة ولا كذب على فى شىء مما ذكر . وننظر فاذا الناس يتحامون ابراهيم أن يلقوه ، وقد انحرف عنه محمد بن عبد الملك ، حتى الحارث بن بشتخير الزريم المغنى ، وكان صديقاً مصافياً لإبراهيم يهجره فيمن هجره من الإخوان . فيكتب إليه إبراهيم :

تغير فيمن تغير حارث وكم من أخ قد غيرته الحوادث
أحارث إن شوركت فيك فطالما غنينا وما بينى وبينك ثالث

ويحس إبراهيم أن ابن الزيات رُدَّ عنه ، فيبسط لسانه فيه ويهجوه كثيراً ، ويقول له :

أبا جعفر خف خفضة بعد رفعة وقصر قليلا عن مدى غلوائكا
فإن كنت قد أوتيت عزا ورفعة فإن رجائى فى غد كرجائكا

ثم يبلغه أنه مات فيقول :

لما أتانى خبر الزيات وأنه قد صار فى الأموات
أيقنت أن موته حياتى

ويعاديه أحمد بن دؤاد فيهجوه ابن الزيات كثيراً ويجمع أحمد الشعراء ويحرضهم على هجاء ابن الزيات ، ثم يقول فيه وقد بلغه أن أحد الشعراء هجاه بقصيدة عدتها سبعون بيتاً

أحسن من سبعين بيتاً هجا جمعك معناهن فى بيت
ما أحوج الملك إلى مطرة تغسل عنه وضر الزيت

يعير ابن الزيات بتجارة الزيت ، فلما بلغ البيتان ابن الزيات كتب إلى القاضى أحمد يعيره ببيع القار وكان أبوه يبيعه

ياذا الذى يطمع فى هجونا عرضت بى نفسك للموت
الزيت لا يزرى بأحسابنا أحسابنا معروفة البيت
تيرتم الملك فلم تنقه حتى غسلنا القار بالزيت

وينشد أبو تمام محمد بن عبد الملك قصيدة يقول فى مطلعها

« لهان علينا أن نقول وتفعلا » فيثيبه عليها ثم يوقع له

رأيتك سهل البيع سمحا وإنما ينالى إذا ما ضن بالشىء بائعه
فأما الذى هانت بضائع بيعه فيوشك أن تبقى عليه بضائعه
هو الماء إن أجمنه طاب ورده ويفسد منه أن تباح شرائعه

فيجيبه أبو تمام منكرا عليه هذا التوقيع

أبا جعفر إن كنت أصبحتُ شاعراً أسامح فى بيعى له من أبايعه
فقد كنت قبلى شاعراً تاجراً به تساهل من عادت عليك منافعه
فصرت وزيراً والوزارة مكرع يغص به بعد الذاذة كارعه
وكم من وزير قد رأينا مسلطا فعاد وقد سدت عليه مطالعه
ولله قوس لا تطيش سهامها ولله سيف لا تفل مقاطعه

وقد حمل أبا تمام بقسوة ملاحظته أن يرد عليه رداً ثقيلا فيه هجاء وفيه تذكير بما قد يؤول اليه أمره مما يتمناه له حساده وأعداؤه وقد صار أبو تمام بهذا أحدهم .

« للحديث بقية »

عبد اللطيف ثابت

إدارة البلديات العامة

مياه

يطرح مجلس قاقوس البلدى فى المناقصة العامة عملية دهان خزان المياه العالى وقد تحدد ظهر يوم ١٤ إبريل ١٩٤٥ لفتح العطاءات بديوان المجلس — ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات من المجلس نظير مبلغ ٢٠٠ مليم للنسخة .

٣٢٩٧